قصّة قصيرة

خروج...

سيّد عبد الخالق

كنت قد وقفت في منتصف القاعة الدّائريّة الكبيرة التي تنتهي عند أوّل الممرّ المفضي إلى خشبة المسرح، وأخرجت الجملة الوحيدة المكتوبة بخطّ يدي، وكنت أحفظها الآن عن ظهر قلب، وقرأت: حاضر ثلاث مرّات. وحسبت في رأسي الخطوات القليلة الّتي أخطوها هناك، ثمّ انّي رحت أدّعي الانشغال الشّديد كعادتي بأن أترك النّظارة الطبيّة الضيّقة العدسات، تتهدّل قليلاً فوق طرف أنفي، وأسحب كفي المفرودة من فروة رأسي وأضمّها ـ في حركة واحدة ـ إلى خصري، ثمّ أستمرّ على ذلك النّحو عدّة مرّات حتّى يحدث شيء مغاير!.

لقد كنت أفعل ذلك كلّ يوم، دون أن يندهش أحد مرّة، كانوا قد تجمّعوا هناك الآن، في دائرة صغيرة عند الطّرف الآخر من القاعة تتّسع تدريجيّاً وهم يتحدّثون ويتناولون وجبة المساء السّريعة ويضحكون. أمّا أنا، فلم يعد في مقدوري أن أستمرّ في الضّحك فترة، دون نوبة السّعال الّتي دأبت تهاجمني في الآونة الأخيرة.

ورغم أنّ دوري ينتهي عند انتهاء الخمس الدّقائق الأولى من المشهد الثّاني، فإنّ الرّجل ـ «البُص» كما اعتادوا أن ينادوه ـ قد حذّرني مرّتين من الانصراف قبل نهاية العرض وقال لي: «احترم زملاءك» فصغرت لذلك، وكنت أمضي وحدي عند نهاية العرض، فيما يتجمّعون في عربات ثلاث كبيرة كلّ ليلة، وقبل أن تنطلق الأخيرة، يطلّ الرّجل من زجاجها الأمامي، يعاتبني:

ـ كنت زي الزّفت النهارده، بكرة بدري حبّه.

يمضون، وتخلف العربات أزيزها العالي في سكون نصف البلد، وأمضي أنا، ويمتدّ المستطيل الأسفلتي اللاّمع خالياً حتّى صحن الميدان الكبير، وبين حين وآخر تمرق عربة وتختفي. ألمح الحارس اللّيلي المنكمش تحت برد يناير، يحضن سلاحه، فيما تأخذه سِنة من النّوم القلِق أمام مدخل المبنى الرّخامي الفسيح. لم يعد يشغلني كثيراً أن أراه أو لا أراه، غير أنّي في كلّ مرة أقاوم تلك الرّغبة الملحّة في الغناء بصوت عالٍ!

وكنت قد فوجئت لمّا سألتني البنت «أحلام» عاملة البوفيه الصّغيرة: لماذا لا تجلس معهم؟ وفكّرت أنّه بوسعي الادّعاء بأنّني لم أسمعها جيّداً، وأنّ عليها أن تكرّر السّؤال مرّة أخرى، لكنّني تردّدت رغم ذلك ورأيتني أقول إنّني أفضّل أن أكون وحدي، كي أحفظ الدّور جيّداً. دون تروٍ، ودون أن يخلو صوتي الواطئ من لعثمة وتسرّع واضحين، وربّما لأنّني راعيت أن تبدو نبرتي حاسمة وقاطعة بدرجة كبيرة، فقد اندهشت البنت، ورأيتها تجاهد في كتم ابتسامة كبيرة، وتضغط أكثر بأصابع كفّها الصّغيرة على فمها.

ولم تكن قد استدارت بوجهها بعد لمّا شعرتُ بحبّات الرّذاذ القليلة فوق أنفي وخدّي، وسألتني وهي على ذلك الوضع «أجيب لك شاي؟» فاكتفيت بهزّة رأسي البطيئة موافقاً، دون أن أتأكّد من أيّة رغبة، في أيّ شيء! كوّرت الورقة، ودفنتها في جيبي، ومرّت فترة قبل أن أجذب المقعد القريب من دورة المياه، وأجلس.

سرحت ببصري عبر البلاطات العريضة الملوّنة، وبدأت أحسّ ذلك الغبش الطّفيف الذي راح يتزايد تدريجيّاً خلف العدستين الضيّقتين. لقد صارت لازمة لديّ أن أمسح عدسات النّظارة وأدعك جفنيّ الملتهبين، ما إن كنت أتأمّل شيئاً لامعاً فترة من الوقت!.

لقد بدأوا يتحرّكون الآن من أماكنهم، ويدلفون إلى حجراتهم للماكياج، وسوف أقوم أنا أيضاً إلى دورة المياه عمّا قليل، أخلع السّترة وأعتمر الزنبيل الطّويل الّذي تضحك له البنت أحلام الصّغيرة، ثمّ أرتدي الزّيّ الطّويل المقلّم بخطوط بنية دقيقة، والمشدود عند البطن بحزام أحمر من القماش اللامع. اكتشفت ذات مرّة أنّني الوحيد الّذي يغيّر ملابسه. وفي تلك الأثناء، يظهر «البُص» من منطقة ما، ليست معلومة لي، يتلقّى التحيّات دون أن يردّها، يقطع بهو الصّالة ـ رغم عرجه الواضح ـ في سرعة، وهو يوزّع أوامر المساء. رأيت أنّها لا تختلف في كلّ مرّة، وفي المرّة الأخيرة، استطعت أن أتأكّد من أنّ عينه اليسرى كانت تضيق قليلاً حينما يتحدّث، وأنّ وجهه الضّارب إلى الحمرة مملوء بندوب وبثور غائرة، وحين يراني من بعيد، أحسُّ زفيره السّاخن حول وجهي ككلّ مرّة، وثقلَ قدميّ الّذي يوهنني إلى حدّ الشّلل. لم يعد في

وسعي تلك الأيّام أن أتجاهل حضوره، أو أدّعي ذلك على نحو أدقّ. أجدني في كلّ مرّة أقف وأنا أرهف سمعي لوقع قدميه غير المنتظم فوق بلاط القاعة، أعدّل من وضع النّظارة الّتي يُخيَّل إليّ اهتزازها، ثمّ تنزلق حبّة العرق الكبيرة من عنقي إلى صدري، من غير أن أستطيع التحكّم في ذلك!

غُصْتُ في المقعد، وهبّت دفعة الهواء الباردة عبر النّافذة المفتوحة على بلاط القاعة. سمعت همهمة الجمهور في الصّالة والدّقة النّحاسيّة الأولى الّتي تخلّف تلك الرنّة المعدنيّة بالقلب، والخواء الموحش حينما تكفّ. وكأنّني غفوت، ومرّت فترة قبل أن أراني: وحدي... أهبط الدّرج الطّيني المتآكل نحو الجوف الرطب، وأنّي أمرّ أسفل البوابة الشاهقة المقوّسة، وأرى قنديل الزيت الوحيد المتدلّي في فراغ السّقف، يهتزّ بطيئاً، يحوم الهاموش الكثير حول ضوئه الواهن، شبه المبسوط فوق الجدران الباهتة، والأرض الطّينيّة المبلولة، غير المستوية، وأمّي وأبي هناك، عند الرّكن الدّاخليّ، وإخوتي الصّغار يتحلّقون حول طبليّة العشاء. رنّ صوتها الطيّب وهي تضرب شالها الأسود حول وجهها الخجول: معقول.... نروح نعرّك مع الهوانم الّلي هناك. ربّنا يحميك يا ضنايا. خد إخواتك كفاية.

ـ يا أمّه ده بكره الافتتاح وكلّ واحد جايب عيلته.

ويقول أبي الفرحان وهو يلمّ طرف جلبابه على قدميه المعروقتين:

ـ خلاص بقى يا ابراهيم، المرّة الجاية نبقى نيجي كلّنا.

ـ قول له يا أستاذ ابراهيم، هو بقى شويّه.

نفس الرّنّة المعدنيّة، ثمّ الخواء الموحش بالقلب. استدرت وامتدّ الطريق الأسفلتيّ الطّويل اللامع، يلتقط بصّات الضوء البرتقالي من الأعمدة المنحنية، تعكس ظلّي المرعوش على الأرض وتتلاقى هناك، وأنا وحدي.... كلّما مررت بها انطفأتْ، وثمّة وجه كبير... جاثم عند المدى!

نهضت واتّجهت ناحية دورة المياه، غيّرت ملابسي وضحكت البنت أحلام ـ وهي تلمّ الأكواب الفارغة ـ كعادتها حين ترى الزنبيل الطّويل فوق رأسي. وظهر الرّجل عند الباب الأمامي مع مدام «لولا» نجمة العرض، وشعرت بسخونة أذني وأنا أسمع الوقع السريع غير المنتظم فوق بلاط القاعة.

ـ جرى أيه يا أستاذ. إيه حكاية إنّك بتبصّ على صدر «لولا» في المشهد الثّاني دي؟

ـ أنا؟

ـ يا بني آدم ده تهريج. أنا عايز شغل يا حضرة، شغل، أنا بدّيك فرصة عمرك، أدّيني حقّي يا أخي.

بعدها عدد أوامر المساء: «لا تنظر للجمهور، تمرّ سريعاً، إيّاك أن تتعمّد البطء كي تظهر وحدك....!» وكان قد خطا خطوتين للأمام، لما استدار ناحيتي مرّة أخرى:

ـ عايزك أحسن النهارده يا ابراهيم. كنت امبارح زيّ الزّفت.

وليلة أمس، كانوا قد استبدلوني بعامل الدّهان الّذي ظهر فجأة في تلك الّليلة. إذ كان قد اشتدّ عليّ ألم الصدر. ولم أعد قادراً على التنفّس بشكل طبيعي فغبت!!

عند الدّقة النّحاسية الثّالثة، أشدُّ حزام الزيّ الأحمر عند البطن جيداً، وأجذب المسحة ذات اليد الخشبية القصيرة وأمضي للداخل.

وقبل أن أصل إلى الباب المقابل أستدير ناحية الحائط وأمسح زجاج صورة الوجه الجادّ، الكبيرة الّتي تتوسّط صدر المكان، ثمّ أعود أدراجي ألتقط الأنفاس، وأختفي، فيما أرقب «البُص» يشدّ شعره الثائر عند الجانبين دون أن أفهم لماذا.

لقد انتهيتُ من ذلك الآن واختفيت. ولمّا رأتني البنت أحلام قالت وهي تكتم الضحك: «كنت هايل يا أستاذ ابراهيم!!». وعند الفصل الثّاني رحت أبذل جهداً مضاعفاً للتحكّم في ضربات القلب. وبدأت أحسّ ذلك الغبش الطّفيف المتجمّع كالرذاذ فوق عدستي النظارة، وكانت مدام «لولا» قد بدأت تتحرّك فوق خشبة المسرح. حين تراني أقف فوق رأسها سوف تقول: ضعّ الزّهرية هناك.. حضّر العشاء.... أنقلّ المائدة إلى يمين الممرّ....» وأقول.. «حاضر» وأفعل. تختلف أوامرها في كلّ مرّة. أمّا أنا، فقد راعيت دائماً ألّا تختلف «حاضر» الأولى عن الأخيرة، إلّا في توقيت النّطق بها. وقبل الأمس قالت في هدوء «انقل المائدة إلى يمين ممرّ الدّخول» ولمّا تحرّكت ناحية الركن الداخلي، لم أجد مائدة هناك وقلت في نفسي إنّ عمّال الاكسسوار المهملين لا بدّ نسوا ذلك. وأغلب الظنّ أنّها أدركت حيرتي، فشخطت فيّ لأخرج، فخرجت، فيما كان الجمهور يضحك لذلك. لكن «البُص» في الخارج لم يضحك. في القاعة الدائريّة الكبيرة قال بصوته العالي: يا بني آدم تخيّل إنّك شايل ترابيزة! ثمّ قال: «هكذا» وراح يتقافز ويفعل ذلك أمام الكثيرين الّذين تجمّعوا هناك!!.

شددت الحزام حول البطن جيّداً، ودفعني «البُص» إلى الدّاخل، كانت مدام «لولا» قد استلقت لتوها أمامي فوق الأريكة الجانبيَّة الكبيرة، تشكو آلام الرأس. لقد لاحظت الآن أنَّ صدر فستانها الشّفيف يكون مفتوحاً بالفعل، وأنَّ ساقيها الممدوتين قد صارتا أكثر انفراجاً وامتلاءً. تأكّدت أيضاً أنَّ المائدة كانت هناك، عند الطّرف الآخر من المكان. ولمّا رأتني، راحت تنظر إليّ نظرتها الغامضة الّتي لا يراها أحد سواي كل ليلة.

هذه المرّة قالت: «اخلع لي الحذاء». نظرت إلى الخلف بتلك السرعة الّتي بدت لي مدهشةً أوّل الأمر، فلطم «البُص» وجهه في الخارج. ولمّا استدرت لم أستطع أن أرى أحداً من النّاس، ولابدَّ أنّها كانت تحاول أن تحتوي الموقف لمّا صرخت: ألم تسمع يا حمار؟!!.

وانتفضت واقفة أمامي، ونظرة عينيها الموزّعة بيني وبين الرّجل المذهول في الخارج تشي بأنَّ ثمَّة خطأ لا تستطيع تداركه. ورغم ذلك، لم أستطع أن أنزع قدميّ الثقيلتين من الأرض. ولاح لي أنّها اندفعت ناحية الباب، وأنّها قالت في صوت مغاير: «طيّب.. اذهب وحضّر العشاء لسيدك» قوّة غامضة كانت تدفع بالبدن كلّه نحو الأرض. بدأت أترنّح كسكران، فيما راحت معالم الأشياء تظهر ثمَّ تختفي تحت غيم ضبابيّ كثيف. كنت أريد أن أصرخ بصوت عالٍ، وربمّا حاولت ذلك ولم أستطع. لكنّي صرت ألوِّح بكل ذراعي في الهواء، وحركة قدميّ غير المنتظمة فوق الأرضية الخشبية لها وقع الدّبيب العالي، وقد بدأت أغمغم كأخرس يستعيد النّطق تدريجياً. انفجرت هي بعلو صوتها: «ستارة». وكان آخر ما سمعت همهمة الجمهور الغاضب، فيما كنت قد استقليت تماماً على ظهري، تتماوج وجوه كثيرة ـ مبهمة الملامح كخيالات لها صوت الخفافيش العالي، في بقعة الضوء الكابية أمام عيني، أعلى مظلّة المسرح.. «ارمو الحمار ده بره» وكانت تزداد بريقاً واشتعالاً كلّما أغمضت عيوني، ونفس الطريق الإسفلتيّ الطّويل يمتدّ، يلتقط بصّات الضوء اللامعة، وأنا وحدي هناك... أمضي بين خطّيْ الأعمدة المنحنية... مستريح البدن.. ومستسلماً لنذر تلك الرّاحة البعيدة... الغامضة!!.

القاهرة

دار الآداب تقدّم الكاتب الأمريكي

بول أوستر

في كتابين جديدين

ثلاثية نيويورك

ترجمة كامل يوسف حسين

في بلاد الأشياء الأخيرة

ترجمة شارل شهوان